تفتح ملف.. "العاصمة الأسوأ"

بغداد إلى أين؟

((الحلقة السادسة))

نساء بمختلف الأعمار، اغلبهن أرامل يعملن بجمع القمامة، دفعهن العوز لنبش مقالب النفايات بحثا عن قطعة بلاستك أو علبة فارغة، ولا يكسر حدّة المنظر إلا ارتداؤهن كومة الثياب السوداء التي تغطيهن. حيث غطين وجوههن بأوشحة سود لفّت بشكل دائري حول رؤوسهن، ربطن أحزمة وسط خصورهن وحملن عصا تساعدهن في تقليب النفايات.. كلاب سائبة تصول وتجول في مناطق تدعى "الطمر الصحي" تتوسط مناطق سكنية تقع في أطراف بغداد.. شباب يتجولون قرب النفايات للملمة ما يمكن حشره في الأكياس التي هتك ثقلها ظهورهم.

المعامل.. منكوبة وسكّانها يعتاشون على النفايات ويستقبلون الموت الجماعي

■ منطقة منسيّة فقيرة سكانها يعانون البؤس والحرمان لكنهم مصممون على الحياة

■ مقاولون يتنافسون على عقد صفقات تجارية لمناطق أكثر استهلاكاً وشعبية

في الليل تنعدم وسائط النقل.. والمواطن الذي يصاب بحالة مرضية طارئة ربما سيموت في مكانه

مناطق جعلت الأهالي لا يرحبون كثيرا بالزائرين خصوصاً الإعلام لأنهم سئموا الوعود

□ بغداد/ إيناس طارق
□ عدسة/ أدهم يوسف

مقاولون يتنافسون في عقد صفقات تجارية على مناطق بغداد الأكثر استهلاكا وشعبية خصوصا التي تضم أسواقا ومحالا تجارية قبل أن تحرق، روائح كريهة منبعثة من تلال النفايات.. صغار يتناوبون البحث بين الأزبال عسى أن يجدوا ما ينفع لهم طعاما، عوائل جائعة تقف في طابور صباحي كأنه تعداد عسكري "أيام زمان" تلتقط طعامها من منطقة جمع النفايات الواقعة في وسط بغداد "المعامل"..

مناطق أطراف بغداد المتمثلة بمنطقة المعامل هذه المنطقة بعيدة عن الحياة من حيث افتقارها إلى ابسط الخدمات البيئية والصحية، منطقة منسيّة فقيرة سكانها يعانون البؤس والحرمان لكنهم مصممون على البقاء أحياءً، شريحة كبيرة من الناس يصل عددها الألف نسمة فيها أطفال لا يعرفون القراءة والكتابة ولا شرب الماء النقي.. وجوه مصفرة، أجساد نحيلة، غابت عنها ملامح التمسك بالحياة يشعلون النار قرب "أكواخهم" فالبيوت بنيت من الحجر والطين ويطهون الطعام في العراء على الخشب أو بقايا النفايات التي تحترق مثل الكارتون والورق، عوائل تتنافس من اجل رزقها في سمسرة النفايات من اجل الحصول على أرباح توفر لهم قوتهم اليومي الذي لا يتعدى الرز وبعض علب الماء المعقم -إن كان معقما-!، من يرى منطقة المعامل لابد من أن يخرج باستنتاج أنها لا تصلح للعيش..هكذا وصفها أحد المسؤولين الكبار في تصريح صحفي أثار أهالي المعامل ودفعهم للتظاهر وإغلاق طرق المدينة التي تعد من اكبر مناطق أطراف بغداد، إذ تبلغ مساحتها اثنين وأربعين كيلو مترا، وتضم مناطق الرشاد الأولى والثانية والنصر الأولى والثانية وحي البتول وعمار بن ياسر والسكك والعماري والدوانم والبستان والباوية والحسينية ويسكنها ما يزيد على ٨٥٠ ألف نسمة، وتتحمل محافظة بغداد ومجلسها مسؤولية خدماتها وشؤونها الإدارية والمالية، سكان هذه المناطق التي يصح أن نسميها منكوبة أصبحوا فريسة سهلة لمشكلات بيئية وصحية في غاية الخطورة.

الوصول مجهد إلى منطقة المعامل التي يتضح لك فيها جليا انك تتجول في منطقة منسية وخارج نطاق منطقة التغطية وليس لها صلة بالعالم الخارجي فهي تشكل منطقة معزولة منفردة بكل شي حتى من ناحية الأمن فسكانها يحمون أنفسهم ويخدمون أنفسهم ولا حاجة لهم لحكومة محلية للتدخل فقد سئموا الوعود كما يقولون.

منذ اللحظة الأولى لدخولك المنطقة، يتضح لك جليا انك تتجول في مدينة لا يربطها بالقرن الحادي والعشرين غير التسمية فقط! ففي الشارع الرئيسي للمنطقة وجدنا صعوبة كبيرة في سير السيارة لكثرة الحفر والمطبات والتي لا يتجاوز بعد الواحدة عن الأخرى غير عشرة امتار، والغريب ان بعض الحفر بعمق ربع متر تقريبا، وقد تسببت في الكثير من الحوادث المرورية خصوصا في الليل.

منخفضات هائلة بمساحات مختلفة، منها ما تكدست بداخلها هياكل سيارات صدئة، او لونتها ألسنة لهب مجهولة، وحديد السكراب، وإطارات متعددة الأشكال والحجوم كأنها ألقيت في محرقة يوما ما، وبقع سود لآثار زيوت محترقة توزعت ذات اليمين وذات الشمال، مقابر أطفال، تلال من الأتربة والنفايات والمزابل، ومستنقعات تباينت ألوانها، فهي ما بين الازرق او الاسود. مناطق تحتاج عند زياراتها من دون مبالغة إلى ارتداء كمامات طبية فالنفايات تحرق بعد أن يأخذ منها الأهم والمهم تجار ينتظرون السيارات الصغيرة "الستوتة" لتقسيم البضاعة القناني الفارغة توزع على معاملِ إعادة "الفافون" والعلب الكارتونية أيضاً على معامل صنع "طبقات البيض الأسمر" والكثير الكثير من المواد الأخرى.

مناطق جعلت الأهالي لا يرحبون كثيرا بالزائرين خصوصاً الإعلام لأنهم سئموا الوعود، انهم عالم يعتاش على النفايات، عالم يجعلك تفقد توازنك عندما تعلم أننا نعود إلى العصور الوسطى لماذا كل هذا يحدث؟ أين واردات النفط؟ أين أموال الموازنات الاستثمارية؟ أين مجلس النواب ومحافظة بغداد ومجلس المحافظة ألم تنته المهاترات والسجالات السياسية؟ ألم يخرج شخص واحد ممن انتخبهم الشعب ينتفض لكل هؤلاء. مناظر تجعل الأجساد تقشعر لما نراه.. طوابير تنتظر فتح سيارات النفايات لتفرغ الحمولة ليكتظ عليها النساء والأطفال لجمع بقايا طعام ع ليسدوا رمق جوعهم، كنا أكثر ما نخشاه انهمار المطر لاسيما وان السماء كانت متلبدة بالسحب الداكنة والريح الرطبة ويزيد هنا همنا كيف يمكن الولوج من هذا المكان. بعض الصبية كانوا يجمعون بعضا من صفيح قد كب حديثا على تلك الأكوام من النفايات، واغلب الظن إنهم كانوا يرومون بيعه لتوفير لقمة العيش، يقول كرار الذي كان يقلب عليه صفيح حرقت أيضا مع النفايات "ننتظر رحيل سائقي السيارات لنكتظ على النفايات وانا -يشير الى نفسه- أختص بجمع قطع الحديد او الصفيح" ومن ثم يبيعوه إلى معامل كبس الفافون المعاد مقابل كل كيلو يحصل على ١٠٠٠ دينار فقد ارتفع سعره ضعفين بسبب زيادة الطلب عليه ولا يعرف لماذا.

امرأة كانت بصحبة ثلاثة أطفال تحاول فك كيس نفايات كان يحوي بعض أوراق الخضار "السبانغ" كما قالت أم زمان التي فضلنا تسميتها بهذا الاسم لأنها علقت قال "زمن أصبحنا نعيش فيه على الأزبال، أطفالي يبحثون معي في النفايات المتبقية من المقاولين وقبل ان تحرق من قبل السكان لأنها لو جمعت من دون حرق لاختفينا من الوجود".

المنطقة موحشة وكئيبة ولا نعلم كيف يمكن الخروج إذا حل الظلام فيها، يقول ابو سلام الرجل الستيني الذي كان يمسك عصا قديمة جدا التقطها يوما من سيارة نفايات: في الليل تنعدم وسائط النقل وتتوقف عن الحركة والمواطن الذي يصاب بحالة مرضية طارئة ربما سيموت في مكانه إذا لم يهيئ له القدر وعن طريق المصادفة واسطة تنقله إلى احد مستشفيات الناس هنا يخافون الخروج لان الكلاب السائبة متوحشة والسلابة يتجولون في الليل والناس تخاف الخروج. الكثير من الكبار والصغار، يتعرضون حاليا للإصابة بأمراض في الجهاز التنفسي بسبب الاستنشاق المستمر للدخان المتصاعد والمستمر من منطقة طمر النفايات، لافتا إلى أن "إقامة مثل هذه المناطق بالقرب من المناطق السكينة يساعد المجرمين على تنفيذ أعمال القتل وتسليب المواطنين". وهناك الكثير من تلك الحوادث تحدث بين فترة وأخرى.

وبدا أطفال أم سلمان الخمسة حتى صغيرهم الذي لا يتجاوز عمره سنتين بحالة رثة وهم يتحركون بين النفايات المحترقة ويأكلون من بعض الأزبال، وكانوا متخوفين من أي غريب يأتي إلى المزبلة، وسرعان ما بدأوا بالبكاء بشكل غريب، بمجرد مشاهدتهم لنا، الأمر الذي لم تعرف والدتهم سببا له.

تقول إن "هذا الطفل يتحمل الدخان، ولا خوف عليه منها!"، وكان الطفل متروكا خارج البيت المكون من الصفيح على حصير خشن والدخان حوله من جميع الجهات، إلا انه بدا بصحة جيدة، على عكس المتوقع.

ويوضح "أبو سجاد" من سكنة المنطقة أن الأطفال يلهون بالنفايات حتى غروب الشمس، ولا يعرفون معنى النظافة وكأنها زائر لم تصادفه أجسادهم منذ أشهر لأن المنطقة لا يتوفر فيها الماء ولا الكهرباء وما يحصلون عليه من تناكر الماء يكاد لا يكفي للشرب وطهي الطعام الذي يطبخ خارج البيوت وفي أوانٍ احرقها الدخان المتصاعد من بقايا النفايات.

الحزن والمعاناة والتعايش مع الألم بشكل يومي، صورة قد تغادر فجيعتها لو قدر لها أن تكون ملونة بألوان الشجر والنبت والزهر والماء الدافق، وهي مؤهلة لأن تكون هكذا، إلا أن القدر اختار لها هذا الواقع المزري، لا ادري أهي بسبب السياسة؟ أم الفساد، أم الاثنين معا؟

انتشرت في عدد من إحياء العاصمة بغداد بعد عام ٢٠٠٣ مثل البياع والصدر وغيرها مناطق عشوائية للطمر الصحي أدت إلى تشويه جمالية العاصمة وانتشار الروائح الإمراض داخل الأحياء فضلا عن جذبها عددا كبيرا من الكلاب السائبة التي تهاجم بعض المواطنين في هذه الأحياء خصوصا في الليل.

تسكن بعض الأسر المهجرة من محافظات عدة فضلا عن اسر بدوية في مناطق الطمر الصحي داخل العاصمة بغداد حيث أنشأت لها منازل من صفيح داخل هذه المناطق وكونت شريحة كبيرة من السكان تعمل داخل هذه المناطق للحصول على مصدر رزق من خلال بيع النفايات مثل علب المشروبات الغازية والكحولية ومواد أخرى إلى بعض المعامل مقابل أجور زهيدة.

وأنشئت مناطق الطمر الصحي عقب عام ٢٠٠٣، بسبب التوسع السكاني في العاصمة بغداد خلال السنوات الأربعة الماضية ونشوء مناطق جديدة وزيادة معدلات الدخول بشكل جيد لشريحة غير قليلة من سكان العاصمة الأمر الذي جعل معدلات النفايات تتزايد بمئات المرات، الأمر الذي جعل أمانة بغداد تتخذ إجراءات عاجلة لإيجاد مناطق جديدة للطمر الصحي قريبة من الأحياء السكنية خصوصا بعد صعوبة نقل النفايات إلى الأماكن السابقة للطمر في أبو غريب غرب بغداد ومناطق الرستمية جنوب بغداد بسبب الأوضاع الأمنية التي كانت تعيشها هذه المناطق.

في لقاءات ومناسبات مختلفة لعدد من المسؤولين في أمانة بغداد وخاصة في مجال المخلفات الصلبة والبيئة طرحت أفكار عن وجود نية لدى الأمانة وربما جهات أخرى باعتماد مشاريع تهدف إلى استثمار مواقع الطمر الصحي للنفايات في مجال توليد الطاقة الكهربائية واستغلالها بشكل أمثل بغية التخفيف من معاناة الانقطاعات المستمرة للتيار الكهربائي نتيجة تعرضها الدائم لأعمال التخريب والتدمير، اضافة إلى ان الحاجة الماسة للطاقة الكهربائية قد دفع الكثير من هذه الجهات لاعتماد التفكير بهذه المشاريع، أسوة بما يحصل في بلدان أخرى عديدة من العالم من خلال مواقع الطمر الصحي عندها إضافة إلى الاستفادة من تلك المواقع بإنتاج مادة (الكومبوس) أو السماد العضوي.

أمانة بغداد تعمل حاليا على إنشاء تسع محطات تحويلية ومعملين لفرز وتدوير النفايات

الأمانة تؤكد انتهاء المشكلة

من جانبه، يؤكد مدير العلاقات والإعلام في أمانة بغداد حكيم عبد الزهرة أن مشكلة المحطات المؤقتة للطمر الصحي داخل مدينة بغداد قد تنتهي نهاية العام الحالي أو بداية العام المقبل.

ويضيف عبد الزهرة أن "أمانة بغداد تعمل حاليا على إنشاء تسع محطات تحويلية ومعملين لفرز وتدوير النفايات لإنهاء ملف المحطات المؤقتة لطمر الصحي في مناطق بغداد"، لافتا إلى أن "العمل بهذه المشاريع سينتهي نهاية العام الحالي أو بداية العام المقبل".

ويتابع بقوله إن "المحطات المؤقتة التسع للطمر الصحي الموزعة بواقع خمس محطات في الرصافة وأربعة في الكرخ، سيتم إلغاؤها بعد الانتهاء من انجاز معامل الفرز والتدوير"، مبينا أن "إنشاء هذه المعامل سيسهم في معالجة الكثير من النفايات التي تنقل حاليا إلى مراكز الطمر الصحي خارج حدود بغداد".

ويشدد مدير العلاقات والإعلام في أمانة بغداد على أن "اختيار أماكن المحطات المؤقتة للنفايات يتم وفق دراسة حاجة المنطقة لإنشاء منطقة طمر صحي مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف البيئية والصحية"، وواصل قائلا إن "حرق النفايات في بعض المحطات يقوم به بعض المواطنين وليس منتسبي الأمانة، لأن هناك عقوبات صارمة على عدم الالتزام بالقوانين داخل المحطات".

الوصول مجهد إلى منطقة المعامل التي يتضح لك فيها جليا انك تتجول في منطقة منسية وخارج نطاق منطقة التغطية